الإمام الشافعي بين أقلام المنتقدين ودعاوى المتعالمين، وتبيان المنصفين

"قراءة لأسباب الهجوم على الشافعي"

د. عبدالله بن عبدالهادي القحطاني

شبكة الألوكة
www.alukah.net

بسم الله الرحمن الرحيم

(الإمام الشافعي بين أقلام المنتقدين، ودعاوى المتعالمين، وتبيان المنصفين) قراءة لأسباب الهجوم على الشافعي.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمدٍ الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد:

فإن من قدرِ الله تعالى لي أن وقفت على جمعٍ من الكتب المخالفة لمنهج أهل السنة والجماعة، ألجأت ضرورة البحث إلى قراءتها، وتأملها، ثم وزن ما فيها من أقوال بميزان الكتاب والسنة في جوانب تتعلق بالصحبة والصحابة وعدالتهم وضبطهم، وذلك بحمد الله في كتابٍ مطبوع، وسفرٍ عن القراء ليس بممنوع.

ولقد هالني خلال تلك المطالعة، وما تلاها من تفتيش في بعض كتب تلك الفئات[1]، ذلك الهجوم السافر، والإزراء المتعمد بعلم من أعلام السُّنة هو الإمام الشافعي، وقلت حينها: أذلك الهجوم لأنه أحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبوعة؟ لكن لو كان ذلك كذلك لكان الهجوم أيضًا بنفس الشراسة، والاندفاع على إخوانه من الأئمة: أبي حنيفة، ومالك، وأحمد، ثم قلت: أم ذلك لعنايته بأصول العلوم، وكليَّاتها، ثم التفريع إلى الجزئيات؟ أم لغير ذلك؟

ثم إني توقفت عن تلك الاحتمالات لأن موضوع البحث الذي أشرت إليه آنفًا يحتم عليَّ مزيدًا من الاعتناء وصرف النظر إليه لا إلى غيره في تلك الفترة على الأقل على أن يبقى موضوع الشافعي مفتوحًا لعله أن يقدر لي في يوم ما أن أكتب فيه بحثًا أو أسطِّر فيه مقالاً، وكان ما أراد الله تعالى في هذه الكلمات.

---

(1) من العقلانية، والقرآنيين، والمستشرقين وغيرهم.

ليس مثل الإمام الشافعي من يخفى على كثير من العامة فضلاً عن طلاب العلم؛ فهو كما قال الإمام أحمد: (كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس، فانظر هل لهذين من خلف، أو منهما عوض؟)[٢]

لقد أجبرني هذا الهجوم على ذلك الإمام الألمعي إلى مراجعة نفسي بل معاتبتها في العلاقة مع كتب الشافعي؛ فقد كانت القراءة عجلى في أحيانٍ، أو الهدف منها نقل جملة أو عدة جملٍ من كتبه هي محلُّ الشاهد دون إجالة النظر فيما عداها في أحايين أخرى؛ فألزمت نفسي بعد تلك المعاتبة بقراءة سفر نفيس من أسفاره، وكنزٍ من كنوزه العديدة: كتاب " الرسالة" قراءةً متأنية مترسلةً؛ أُعيد بعض جملة وكلماته، وألتقط وأدوّن بعض عباراته؛ لعلي أقف على أسباب هجوم القوم عليه، أو أهتدي إلى علة توجيه النقد إليه؛ فتبيَّن لي غاية التبيُّن أن هذا التشغيب والتأليب حيلة ماكرة، وكرَّة خاسرة الهدف منها: إسقاط ركن من أساطين السنة ركين، ولا زال السؤال قائمًا: لِمَ الإمام الشافعي؟

إن الجواب عن هذا السؤال كفيل بظهور الحقيقة جليّةً كي لا تغتر أجيالٌ قد تهولها أسماءٌ كبيرة، وأقلامٌ شهيرة خاضت في انتقاد الإمام الشافعي؛ فينسج هؤلاء الصغار على منوال أولئك الكبار[٣].

لقد استبان أن للهجوم على الإمام الشافعي أسبابًا منها:

أولاً: لا ترى الشافعي إلا مستدلاً بالكتاب والسنة، فهما عنده الأساس، وبعض خصومه يدَّعون الأخذ بالقرآن فحسب، فإذا وجدوا الشافعي قد استدل بالقرآن وجعله عمدة استدلاله، ثم أورد من السنة النبوية ما لا يخالفه فإنه القائل: (لا تخالف سنة لرسول الله كتاب الله بحال)[٤] فقوله صريحٌ في استحالة مخالفة السنة للكتاب؛ فإن

---

(٢) "تاريخ بغداد" (٢/٦٦).

(٣) وغالبهم كبار في الشهرة لا في العلم والعمل

(٤) "الرسالة" (ص٥٤٦).

خصومه لا يروق لهم ذلك الائتلاف، إذ لا بد من إيجاد الاختلاف لنسف السنة بدعوى مخالفتها للكتاب.

ثانيًا: دفاعه عن السنة النبوية، واحتجاجه بها، ودفع الاختلاف عنها، وفي ثنايا كتابه "الرسالة" ما يشهد لهذا بجلاء، ومنه قوله عن الأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم: (ويسُنُّ في الشيء سنة، وفيما يخالفه أخرى، فلا يخلِّص بعض السامعين بين اختلاف الحالين اللتين سنَّ فيهما) [٥]، وفي كتابه الآخر: "اختلاف الحديث" مصداقٌ للتأليف بين نصوص السنة النبوية، وهذا بلا شك يكدِّر على الذين يضربون السنة النبوية بعضها ببعض، ليسلم لهم القول بعدم الحاجة إليها لوجود التناقض بين نصوصها زعموا !

ثالثًا: الشافعي يرى أن السنة تستقل بالتشريع لكونها أحد أركان الوحي؛ فقد بين في كتاب "الرسالة" أن بعض الأحكام واردة في السنة النبوية، ومن شواهد ذلك قوله: (وقد سنَّ رسول الله مع كتاب الله، وسنَّ فيما ليس فيه بعينه نص كتاب) [٦]، وهذا يزعج أولئك الذين لا يعجبهم أن تستقل السنة بالتشريع، لكنه أشد إزعاجًا وإيلامًا لقوم أنكروا السنة أصلاً.

رابعًا: الإمام الشافعي كان حفيًّا بأخبار الآحاد إذا ثبتت صحتها؛ فهو يرى حجية خبر الآحاد، ويسوق على ذلك دلائل كثيرة لا يسع من لديه أدنى علم وإنصاف إلا أن يُسلِّم لها ويُذعن، وقد قال في موضع: (فقال لي قائل: احدُد لي أقل ما تقوم به الحجة على أهل العلم، حتى يثبت عليهم خبر الخاصة، فقلت: خبر الواحد عن الواحد حتى ينتهي به إلى النبي، أو من انتُهيَ به إليه دونه) [٧].

---

(٥) "المرجع السابق" (ص٢١٤).

(٦) المرجع السابق (ص٨٨).

(٧) المرجع السابق (ص٣٦٩).

وهذا البيان في تلك العبارة الموجزة، وما تلاها في الكتاب من إيراد الشواهد القوية على تثبيت خبر الواحد لا شك أنه لا يعجب منكري أخبار الآحاد فضلاً عن منكري السنة عمومًا؛ لذا فإن حجج الشافعي الدامغة أوجعتهم؛ فالسبيل إذًا إسقاطه بمرة.

خامسًا: اعتنى الإمام الشافعي عنايةً فائقة بالكلام على الأدلة الشرعية من كتاب وسنة وإجماع وقياس وغيرها، وأصَّل لذلك أصولاً، وقعَّد قواعد لاستنباط الأحكام من النصوص على خطى ثابتة، وأسس سليمة مستقيمة بعيدًا عن شطط أهل الأهواء وانحرافاتهم، وهل سيرضي هذا أصحاب: "تاريخية النص" [٨] الذين يرون أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ؟ والذين يرون أن النصوص الشرعية جاءت لوقتها، فصلاحيتها لوقتها دون غيره؟ وهل سيرضي أولئك الذين يردون النصوص لا لشيءٍ إلا لمخالفتها لما قرأوه وظنوه حقًّا، أو ما يزعمون من مناقضتها لعقولهم؟ والجواب: كلا.

سادسًا: مع كل ما يطرح أولئك مما يدَّعون به تعظيم العقل: هل كان الشافعيُّ مهملاً لدور العقل؟ أو قائلاً بعدم اعتباره، وإهماله؟

الجواب يتضح في قوله عند ترجيحه أحد الأقوال في مسألة فقهية: (قلت: رأيته أشبه بمعنى كتاب الله وبالمعقول) ثم ذكر سؤال مناظره له: (قال: فما يفسده من قِبل العقول)، ثم شرع في الجواب عن سؤال مناظره بحجة عقلية[٩].

وهذا الاحتجاج العقلي من الشافعي يحرج خصومه كثيرًا الذين يتحججون في غالب ما يردونه من نصوص السنة النبوية بمخالفتها للعقول، ويُزرون بعلماء السنة في انتقاد دائبٍ بأنهم لا يُعملون العقل عند النظر في النصوص، بينما تراهم يمجدون المعتزلة لأنهم توسعوا في الحجج العقلية وإن خالفت النصوص الشرعية، فإذا كان

---

(٨) منهم خليل عبدالكريم صاحب كتاب: "النص المؤسس ومجتمعه".

(٩) "الرسالة" (ص٥٧٨).

علماء أهل السنة كالشافعي وغيره يحتفون بالعقل، ويرجعون إليه في فهم النصِّ، وتنزيل الأحكام الشرعية على الوقائع؛ أُسقط في أيدي أولئك المنتقدين.

سابعًا: الإمام ضليعٌ في اللغة؛ إذا تكلم أو كتب فكأنما يغترف من بحر، يعرف وحشي الكلام، ويسبك الألفاظ فينظمها كحبات اللؤلؤ المتجاورة التي لا تمايز بينها، ولا نقص يعروها من وجه من الوجه، ويستشهد بمنثور كلام العرب وأشعارها، وقد قال الأصمعي: (صححت أشعار الهذليين على شاب من قريش بمكة يقال له: محمد بن إدريس)[10]، فلا غرابة حينئذ أن يستغلق فهم عباراته على من أوتي حظًّا في العربية قليل، ولا مناص له والحال هذه إلا أن ينسف الكتابة وكاتبها، والرواية وراويها ليسلم له التأصيل الباطل الذي أصَّله، والقول السقيم الذي حصَّله، فلا هو بالذي أدرك سبك الشافعي الفريد، ولا هو بالذي طوى الثوب على غرّة ليسلم البعيد!

ثامنًا: عنايته الشديدة بقوانين الرواية، وصيانته لقواعد الدراية، وتأصيله لعلم أصول الفقه بعبارات قليلة شديدة النفاسة، ولو تأملت قواعده في قبول المراسيل، وقوانينه في الأخذ بظواهر النصوص دون بواطنها ما لم يدل دليل على إرادة الباطن[11]، وكلامه في الأخذ بعموم الألفاظ إلا ما دل الدليل فيه على التخصيص؛ علمت أنه لا وجه حينئذ لمن ينتقد الشافعي بالإيغال في القول بحجية كل خبر، فإنه القائل: (من كثر غلطه من المحدثين، ولم يكن له أصل كتاب صحيح لم نقبل حديثه)[12]، ثم إنه لا يقبل كل رواية دون نقد وتمحيص ،ولا يرضى منتقدوه إلا أن يكون الأمر لهم سبهللاً بلا قواعد ولا ضوابط.

تاسعًا: توَّج الشافعي كلامه في الأحكام الشرعية، والقواعد المرعية بكلام فائق الجمال عن الاجتهاد مستدلا له ببعض النصوص الشرعية التي تعين على الاجتهاد، وتحفز العلماء على النفور من التقليد ما دامت الأهلية موجودة، وذلك التقرير عن

([10]) "تهذيب الأسماء واللغات" (١/٥٥).

([11]). قال في "الرسالة" (ص٥٨٠): (والقرآن على ظاهره حتى تأتي دلالة منه أو سنة أو إجماع بأنه على باطن دون ظاهر).

([12])المرجع السابق (ص٣٨٢)

الاجتهاد لن يروق لمنكري حجية السنة، والمهاجمين للشافعي؛ لأنهم يرمون جمعًا من علماء الإسلام بالجمود والتقليد، فتنطلق عبارات الشافعي بنسف أقوالهم؛ إذ لولا الاجتهاد لتعطلت كثير من النوازل عن إيقاع الأحكام عليها.

عاشرًا: جمع الشافعي إلى كل ما تقدم حلاوة المناظرة، وحسن الأدب فيما يلقي مع احترام المناظر، والعبارة الرفيعة في عرض خلاف الخصوم مع ذكر حججهم وأدلتهم بعيدًا عن تجريح الأشخاص، أو تسفيه الأقوال، وفي هذا تربية لطلاب العلم على الأخلاق الرفيعة، وحملٌ للمخالف على قبول ما يراه الشافعي حقًّا، وهذا ما لا يجيد عشر معشاره الكتبة المنتقدون له.

وبعد فهذه -فيما تبين لي- خصال عشر فتحت على الشافعي باب الانتقاد من خصومه الذين ما أرادوه بشخصه بل أرادوا رد السنة وانتقادها، والقول بعدم حجيتها وبالتالي إسقاطها من نفوس المسلمين من أن تكون من مصادر التشريع، وإن حصل لهم ما أرادوا من إسقاط الشافعي -ولن يحصل بإذن الله- هاجموا أئمة أخرين من علماء الإسلام فيما أجادوا فيه وأتقنوه من علوم الشريعة، وجاؤوا بفهم جديد لدين الله جل وعلا، وتفسير مريب لكتاب الله تعالى ليوافق أهوائهم، ويلبي رغباتهم[١٣].

والله جل وعلا قد تكفل بحفظ الوحيين كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر: ٩)، والذكر يشمل القرآن والسنة كما هو قول طائفة من أهل العلم.

وما هذه الخواطر المتقدمة إلا مقدمة في طريق طويل للدفاع عن مصادر التشريع، وكشف البضاعة الزيوف التي قد روج لها المستشرقون، وتلقفها عنهم تلامذتهم من أصحاب المدارس الحديثة في فهم النصوص من عقلانيين وقرآنيين ومن لف لفهم وانتهج منهجهم.

---

(١٣) وقد حصل هذا من كثير منهم والله المستعان.

والله المسؤول أن يخلص الأقوال والأعمال والنيات لوجهه الكريم،

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين

كتبه: د. عبدالله بن عبدالهادي القحطاني ٦/صفر/ ١٤٤٠هـ

هذا الكتاب منشور في